المفارقة السياقية واللفظية
في شعر عبد الرزاق الربيعي

Contextual and verbal paradox

in the poetry of Abdul Razzaq Al-Rubaie

إعداد الباحثة

م. د. وصال كاظم حسين

كلية التربية للبنات/ الجامعة العراقية

Lec. Dr. Wesal Kazim Hussein

Al-iraqia University College of Education for Women

wesal.k.hussain@aliraqia.edu.iq

9647835388241

الملخص

تعد المفارقة تقنية أسلوبية بارزة في الشعر العربي قديمهِ وحديثهِ، إذ ساهمت في إثراء النص الشعري بكثيرٍ من التأويلات التي تفتح أمام المتلقي آفاقاً جديدة للتفاعل مع النص، وتعكس قدرة الشاعر على تصوير أفكاره ورؤيته عبر بنية تضادية تقوم على المفارقة أو صور بلاغية أخرى تنطلق من خلالها المفارقة، وتبرز كفاءة الشاعر في اختيار التراكيب اللغوية المتميزة التي تجعل النص غنياً بالتأويلات المتعددة.

اخترت أن يكون شعر الشاعر عبد الرزاق الربيعي محوراً لدراستي، إذ لعبت المفارقة في شعره دوراً بارزاً لإثارة ودهشة المتلقي وتعاطفه حزناً وألماً بقدر يُسايرُ ألم الشاعر وتجربته، فتناولت نصوصه الشعرية بالدراسة والتحليل متابعةً أسلوب المفارقة فيها بشقيها اللفظي والسياقي، مستخلصة مجموعة من النتائج البارزة في شعره.

الكلمات المفتاحية : (المفارقة - الشعر- البلاغة - تحليل – التراكيب).

Abstract:

Paradox is a prominent stiylistic technique in the ancient and modern Arabic poetry, as it contributed to enriching the poetic text with many interpretations that open up new horizons for the recipient to interact with the text , it reflects the poet's ability to portray, his thoughts and vision hirough a contrasting structure based on paradox and other rhetorical images through which the paradox proceeds and highlights the poet's competence in choosing distinct linguistic structures that make the text rich in distinct interpretations, I chose the poetry of Abdul Razzaq Al-Rubaie to be the focus of my study as the paradox in his poetry played a prominent role to arouse the recipient's surprise and sympathy as much as the poet's pain and experience, therefore, I dealt with his poetic texts by studying and analysing the style of paradox in these texts with its verbal and contextual types, and reaching not able result of his poetry.

Paradox- Poetry- Rhetoric - Analysis- Structures.

المقدمة

لم تحظ المفارقة باهتمام كبير من النقاد والبلاغيين القدامى كما هو الاهتمام بالأساليب البيانية (التشبيه والاستعارة والكناية) ، بالرغم من أهميتها كظاهرة أسلوبية ذات علاقة جدلية بين المرسل (الشاعر) والمرسل إليه (المتلقي) ؛ إذ تقوم على أسلوب المراوغة والمخاتلة فيسعى المتلقي المثقف إلى فك شفرتها بسرعة بديهة تدعوه إلى الدهشة والتفاعل الكلي مطمح النص الناجح.

وفي شعر عبد الرزاق الربيعي اخترت أن يكون أسلوب المفارقة محور دراستي إذ كانت المفارقة اللعبة اللغوية والسياقية للشاعر التي استعملها بمهارة راصداً من خلالها التناقضات والتضادات في حياته، وتجاربه الشخصية ، محركاً إياها عبر أزمنة وأمكنة وأصدقاء مختلفين في حفظ العهد والوفاء ، وزوجة مخلصة خطفها الموت ، ووطن لم يبق منه إلا الذكرى .

قسمت دراستي بعد التمهيد إلى مبحثين : الأول : المفارقة اللفظية ، والثاني: المفارقة السياقة (مفارقة الموقف والحدث) ثم خاتمة بالنتائج التي توصلت إليها بعد رحلة غنية بالتناقضات يأس – أمل... وقوة -ضعف- غربة - حنين ... الأنا والآخر، الأنا والأنا... وبنصوص حافلة بالإثارة والإدهاش.

تمهيد

أولاً: مفهوم المفارقة :

لاشك في أن المفارقة أسلوبٌ بلاغيٌ عميق، وممارسة أدبية عُرفت في الساحة الأدبية العالمية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولم تظهر في الساحة الأدبية العربية إلا بعد مرحلة الخمسينات من القرن المنصرم. وكتب في تجلياتها ومجالات حركتها عددٌ من النقاد العرب المعاصرين .

والمفارقة في معناها اللغوي بحسب المعاجم العربية : (المباينة والانفصال والبعد) ورد في لسان العرب أن: " الفرق خلاف الجمع، فرقهُ، يفرقه، فرقاً، والتفرق والاختراق سواء".**(ابن منظور ، ١٩٩٩م، مادة"فرق"، مجمع اللغة العربية ، ٢٠٠٤، مادة "فرق").**

ويظهر لنا من خلال معاني الاستعمالات المختلفة أنها تشترك في دلالة الاختلاف والتنافر.

أما المفارقة كمصطلح (paradox) فله دلالة بحثية جديدة في الدراسات الغربية.

فإن عدنا إلى قاموس أكسفورد نجد مصطلح المفارقة(irony) وهو مشتق من الكلمة اللاتينية (ironiq) التي تعني: ((الاختفاء ، والمخادعة ، والتظاهر بالجهل)).(William lit-tleak,1956mp.1045).

ولو تتبعنا لأصل المصطلح الأجنبي للمفارقة في النقد العربي نجد تشابهاً بين مصطلحي(pradox , Irony) إذ أكد (ميويك) أن المفارقة في نظر الشاعر والناقد الألماني شليجل هي شكلٌ من النقيضة ، ((Muek,D.C,1982,p.82). a from of paradox)).

بيدَ أن مفهوم المفارقة أعم وأشمل من دلالة لفظة (Irony) : التهكم والسخرية ؛ فالسخرية وجه من الوجوه العديدة للمفارقة ، أما لفظة (paradox) التي تعني النقيضة فدلالتها أقرب إلى مفهوم (المفارقة)، إذ أن داخل بنية كل مفارقة هناك نوع من التناقض منها: التضاد، والمراوغة والخفاء، والقول بما لا يتوقعه القارئ عابرة التراكيب الجزئية والصور قصيرة المدى فغالباً تستند إلى موقف أو رؤية عقلية لموقف معين - مقدمة - سؤال وجواب بعيد عن أفق المتلقي وخياراته المألوفة.

ويعد النص الشعري المنطلق الأكبر لوظيفة المفارقة القائمة على التضاد والتناقض ليس على مستوى الألفاظ وحسب بل تعدى ذلك إلى التضاد السياقي الذي يخلقُ نوعاً من التوتر

يفضي إلى الدهشة والانسجام الكلى مع النص، ذلك لأن التضاد "مصدر الفجوة مسافة التوتر؛ فهو يقود إلى النتيجة الآتية " وهي أن ازدياد درجة التضاد ثم البلوغ إلى التضاد المطلق ، قادر على توليد طاقة أكبر من الشعرية"**(كمال أبو ديب، ١٩٨٧،ص٤٧)**

إذ تقوم اللغة الشعرية في أبرز وجوهها الإبداعية على لعبة المفارقة ؛ فالمفارقة تميّز لغة الشعر عن لغة التوصيل الاعتيادية التي تسمى أحياناً (اللغة المعيارية) ؛ فهدف المعيارية (التوصيل) أما هدف اللغة الشعرية هدف جمالي غايته (الإثارة) وربما كان مضاداً يعمل على منع (التوصيل).**(موركاروفيسكي، ١٩٨٤م، ص٤١-٤١)**

ويلمح كوهين لهذا الأمر حين يرى أن اللغة الشعرية تشكل نظاماً للانزياح والخرق الذي يعني تفكيك بناء اللغة المعيارية ولفظها؛ فإذا كانت اللغة المعيارية تحتمل وجود النقيض في بنائها ؛ فإن اللغة الشعرية تتميز بأنها نقض لذلك النقيض؛ فتعيد إلى اللغة إيجابيتها المطلقة عن طريق نفي النفي .(جان كوهن،١٩٩٥م، ص٧٩)

ومن خلال ما تقدم وجدنا أن للمفارقة أشكال وتحولات ربما فاقت فاعليتها فاعلية الأساليب البلاغية الأخرى في بعض النصوص الشعرية، فالحياة حافلة بالتناقضات والتضادات، وهنا يأتي دور الأديب في تناول كل ما يدور في المجتمع ويعكس صورهُ في الأدب بمظاهر وأساليب شتى، فكانت المفارقة بين تلك الأساليب: "كذرة الملح التي تجعل الطبق شهيا"[*1]

ثانياً: المفارقة في شعر عبد الرزاق الربيعي

عبد الرزاق الربيعي شاعر وكاتب مسرحي، صدر له حوالي (٤٠) كتاباً وديواناً في الشعر والمسرح والعمل الإعلامي، يكتب الشعر بكلِّ ألوانهِ وطرقه: العمودي، الحر، قصيدة النثر، وفي بعض نصوصه تمتزج هذه الطرق والأساليب ليقدم شكلاً منفتحاً عابراً الحدود والطرق المألوفة مستعملاً التقنيات الأسلوبية والبلاغية الأكثر حضوراً وتميزاً في الشعر العربي الحديث.

وأشاد أكثر من ناقد وأديب إلى كفاءة الشاعر عبد الرزاق الربيعي في استثمار الأساليب الحديثة في أبنية القصيدة المعاصرة ، ولاسيما أسلوب المفارقة : وإن لم يعززوا ذلك بالشواهد والأمثلة.

(١) المقولة للأديب الألماني توماس مان ، ولد عام ١٨٧٥م ، وله روايات مشهورة.

وفي هذا السياق يقولُ الناقد الدكتور صلاح فضل: "إن الملاحظ على شعر عبدالرزاق الربيعي إلى جانب هذه الوجازة المعبّرة، متانة النسيج اللغوي، وقدرة التخييل التصويري على تكوين مجازات تشفُ عن حالات النفس وأشكال الوجود باقتدار فائق، كما إنهُ بارع في التحرك الرشيق عبر مواقعهِ في الخطاب الشعري"(رشا فاضل،٢٠٠٩م،ص٧١)

ويقول الناقد حاتم الصكر: "إن الشاعر عبد الرزاق الربيعي كثيراً ما يعتمد على الانزياحية الحادة، والمفارقات الأسلوبية الواضحة في التراكيب والصور أكثر من سواها، وهي وسيلة ارتاح إليها الربيعي وتميّزَ بها". (رشا فاضل، ص١١)

وإلى ذلك أشار الناقد الدكتور سعد التميمي في قوله: "إن قصيدة عبدالرزاق لا تُكشفَ أسرارها بسهولة وتخفي جمالياتها خلف أستار من المفارقة والدهشة".(رشا فاضل، ص٢٢)

فانطلقت قصيدة الربيعي حاملة إرثها الفصيح وثقافة شاعرها المنوعة ، وواكبت مسيرة تطور القصيدة الحديثة ، وبرزت في استثمار تقنية المفارقة على نحوٍ لافت.

المبحث الأول
المفارقة السياقية أو (مفارقة الموقف والحدث)

يُشير هذا النوع من المفارقة إلى أسلوب بلاغي واسع، يتخطى حدود الجملة الواحدة، أو المقطع القصير، وتسمى أيضاً مفارقة الموقف أو الحدث، ويمكن تسميتها بالمفارقة الدرامية إذ تقوم المفارقة الدرامية على تصوير حالة أو حدث أو تبني موقف ما يمكن من خلاله إدراك أبعاد كل منها، ويمكن القول أن المفارقة الدرامية تستند في تناولها إلى مرجعيات تاريخية وفكرية ونفسية(Muek,D.C,p.78-79) ، فهي لا تدرك بكلمة ولا بجملة بل تمتد أبعادها غالباً لتغطي النص كله، إلا أن ذلك لا يقيم حداً فاصلاً بينها وبين المفارقة اللفظية، فربما توظف مفارقة الموقف الألفاظ بقدر معين لتخطيط أبعادها.(الهام مكي المواشي ، ٢٠٠١م،ص٧٥).

ولا شك من أن هذا النوع من المفارقة يحتاج من القارئ إلى تحريك الذهن للاستنتاج والتعرف على تحولات الدلالة للوصول إلى المعنى الجديد.

عبد الرزاق الربيعي شاعر حزين باستمرار، لأسباب عدة منها : الغربة عن الوطن، وفاة الزوجة ، النكبات التي حلت بالوطن، فيحاول عبثاً أن يعزل نفسه عن الآخرين.

في ليلة سنة (القرد) (عبد الرزاق الربيعي، مج١، ص٤٧)

لن أسرج الشموع
ليهتدي الضالون
ويبتسم اليتامى
وتتوقف الأرامل عن تذكر
ماقبل الميلاد والعباد
ولن أملأ الكؤوس بالأحلام
والاثام
لن أفتح بابي لأيِّ طارق ...

إلى هنا ، وما يزال الأمر معقولاً أن يعزل نفسه عن كلِّ طارق، يعزل نفسه عن الآخر مهما كان من الأخوة والأصدقاء... لا بأس...

لكن المفارقة تأتي في ما بعد:

لن أفتح بابي لطارقِ

حتى لو كان أنا

صورة غرائبية جديدة، قلما رأيناها في شعر شاعر آخر ، أنه لا يفتح باب خلوته لطارق حتى لو كان (هو)!!

بحاضرهِ القاسي ، وعذاباته المتجسدة بشخصيته يريد أن ينسى واقعاً كاملاً وأن يحيا ولو لساعات حياة أخرى، فخالف الواقع بشكل مبالغ به إلى حد عزلته عن نفسه هو !، فهو لا يريد أن يكون هو، يريد أن يكون شخصاً آخر لم يعش ذلك الواقع المؤلم عبر مفارقة قائمة على المفاجأة وإدهاش القارئ بما لم يتوقع .

وهو حين يستعرض حياة بعض زملائه عبر سرد قصصي مكثف قائم على الاختزال التدريجي لمسار تأريخ حياته من الأعلى إلى الأدنى ، من الشباب إلى الشوط الأخير.

نلاحظ الانحسار المأساوي لحياة بعض الناس ، والخسائر التي يدفعها الإنسان في حركة حياته. نلاحظ التدرج في الفقد والخسائر ، إذ يمتلك بعضهم في الشوط الأول من حياتهم؛ البيت، الزوجة، الوظيفة، ومباهج أخرى من حياتهم وسرعان ما تتهاوى هذه المكاسب واحدة تلو الأخرى، حيث لا يبقى إلاّ مالا قيمة لهُ!!

رجلٌ (عبد الرزاق الربيعي، مج٣، ص٢٤٣)

وزجاجة خمر

بيت

امرأة

ووظيفة

***

رجلٌ

وزجاجة خمر

بيت

امرأة

***

رجلٌ

وزجاجة خمر

بيت

***

رجلٌ

وزجاجة خمر

***

...زجاجة .

وأحياناً تقومُ بنية القصيدة بأكملها على المفارقة السياقية -فعلى سبيل المثال- الوطن يمثل الذكريات الجميلة عند المهاجر والمغترب ، فهو في المنافي يشدهُ الحنين لحارات وأبنية، وأنهار، ومواقع ارتادها ، وأجواء تعايش معها، لكنهُ يفاجئنا بمشهدٍ حزين:

عندما تعود إلى الوطن (عبد الرزاق الربيعي،مج٣، ص١٧٠-١٧٣)

لا توجه وجهكَ صوبَ البيوت

والمدن والحدائق..

إعطِ وجهكَ للمقبرة

هناك هناك

ستجد الكثيرين

ويودون أن يروك

ولو من تحت تراب الذكريات

تلك الصور الحزينة المستمدة من ذاكرة الفرد العراقي التي اختزنت مشاهد الحروب المتوالية والنكبات، والموت الذي أصبحَ هو المأَلوف في الحياة اليومية للعراقيين في تلك الفترة. "أعطِ وجهك للمقبرة" فهناك تكمن الذكريات كلها مدفونة بحلوها ومرها فلا معنى ولا قيمة للمباني دون هؤلاء الذين رحلوا ورحل كل شيء جميل معهم ، رحلوا عبر مشهد درامي قائم على المفارقة بين دلالة الوطن الحقيقية ومعانيه المعروفة وبين الوطن الآخر بمعناه المضاد الذي عاشه وألفه الفرد العراقي، وهذا ما يقره النص الآتي:

إذا صادفكم موتٌ ضال(عبد الرزاق الربيعي،مج٢، ص١٠٦)

في أحد شوارع بغداد

لا تأخذ بيده

فهو لا يحتاج إلى أدلاء
إنهُ يعرف طريقه جيداً إنه يذهب إلى الشموس الأولى والأعناق
إنهُ يذهب إلى المكتبات
إنهُ يذهب إلى الحدائق المعلقة في القلوب
حاملاً خرائط الغزاة من أسلافه

وأمام قسوة الماضي القريب والحاضر، وأمامَ سيل أحزانه التي لا تتوقف يقرر الاستعانة بالصلاة في المسجد علّها تسهم في إبعاد أحزانه ومآسيه فيقول في قصيدة (صلاة الوحشة) وعبر سردٍ غرائبي:

حينَ مضيتُ إلى المسجد(عبد الرزاق الربيعي، مج٣، ص١٣٢-١٣٤)
لم تُبصر عيناي بباحة المسجد إلايّ
ليسَ هناك سواي

ليسَ هناك سواه، المفترض هنا أن يتراجع، لكنهُ أصرَّ على الدخول متوهماً وجود مصلين استجابة لتصعيد روحي نادر.

شققتُ طريقي للمحراب
صعدتُ وكَبّرت
بكلِّ ضجيج الأرض
المخزون بحنجرتي
حتى ارتجت أذناي...

ولم يكتفِ بذلك، بل زادَ التصعيد الروحي وهيمنَ على كلِّ أحاسيسه؛ مما جعلهُ يتوهم أنّ المصلين يتكاثرون حوله؛ لذلك قرر أن يكون إماماً للجميع عبر مفارقة ثانية:

قلتُ لنفسي إمّ الجمع
أممتُ يقيني
ونشيج أَنيني
المخبوء بجرح الناي
دعوتُ إلهي مبتهلاً
وتشفعتُ بفيضِ أساي
وإذا أتممتُ صلاتي

سلمتُ على ميمنتي
وجحافل ميسرتي
وخرجتُ... وسارَ الجمع
الذاهل خلف هداي

غيرَ أن هذه الدقائق الصوفية الخاطفة التي عاشها بمخيلة رصفت ألفاظاً صنعت مشهداً دراميا بعد أن لجأ إلى المسجد ليستعين بالصلاة والمصلين على فض همومه ؛ فإذا به لم يجد غير (سواه) في المسجد ! وتكمن المفارقة الكبرى حينما فوجئ بعد ذلك المشهد التخييلي المليء بالرفاق بالحقيقة المؤلمة أنه وحده ! ولا يسمع غير نحيب خطاه! إذ أن هذه الدقائق الصوفية لم تستمر أمام سطوة عقله المثقل بالجراح في واقع هشٍّ فقد التماسك؛ ولا سبلَ للخلاصَ؛ فالغاية من المفارقة عنده كانت تشكل نوعاً من الكشف والرصد لتناقضات الواقع المعيش التي ضاق بها ذرعاً ؛ فلم يجد أفضل من أسلوب المفارقة الدرامية لمواجهة تلك التناقضات التي تمثلت في بنية شعره بشكل لافت.

وتفرق كلّي في طرقات الوحشة
ساعتها لم أسمع
غير نحيب خُطاي..

وهذا الرجل المثقل بالجراح ينظر في المرآة؛ ليفاجئه رجلٌ أشيب لا يعرفه.. صورة رجل آخر.. تبدو عليه علامات الهرم، مثقل بالهموم والمتاعب، فينكرهُ محاولاً نسبته إلى إنسان آخر.. ليس هو.. والمفارقة تتكشف من خلال إنهُ لا يوجد أحد غيره ينظر في المرآةّ.

هذا الرجل الأشيب (عبد الرزاق الربيعي، مج١، ص٤٥٠-٤٥١)

حاصرني
بجبين مشتعل
وعيونٍ تتراقص
في ساحتها خيبات
هذا الرجل المتعب
لما حدّق في وجهي
زلّت قدمي في بحر الظلمات
لأنهُ؛ حين تملى فيّ رأى شبحاً

وأنا حين تمليتُ
رأيتُ بجبهته
رجلاً من وادي الأموات
هذا المتعب حين يحاصره الهم
وتصعقه الشمس
يلوذُ بظلِّ الكلمات
هذا الرجلُ الأشيب
لا أعرفهُ
فلماذا؟!
ينظرُ في وجهي بالمرآة !

تحدث عن رجل آخر باستعمال صيغة الإشارة (هذا الرجل) واعتمد تكرار هذه الصيغة ثلاث مرات للتأكيد أنه رجل آخر ليس هو، تضاد بين (الأنا والأنا) تخلله أسلوب التراكم الدلالي داخل نسيج القصيدة للوصول إلى قمة المفارقة السياقية التي أنتجتها بنية القصيدة ككل .

هكذا كانت حياة الشاعر عبد الرزاق الربيعي حافلة بالشظايا ونشيج الأحزان بين الغربة والحنين، والصبر واليأس، والقوة والضعف، وشهدت قصيدته هذا التداخل والتناقض، فتداخل فيها أكثر من أسلوب، سرد ونثر وتفعيلة؛ لتصبح نصاً منفتحاً عابراً الأشكال المألوفة.

وسار على نهج شعراء قصيدتي التفعيلة والنثر في استثمار التفاصيل اليومية القادرة على البوح بتجاربه بكلِّ أشكالها، كما استثمر التقنيات الأسلوبية التي عرفتها الساحة الأدبية المعاصرة ولاسيما أسلوب المفارقة والتضاد، المفارقة التي استعملها بإفراط تقوم غالباً على رؤية عقلية خصبة، فيها كثيرٌ من المراوغة والخفاء وكسر التوقع مما أعطى قصائده بعداً درامياً حافلاً بالإثارة والإدهاش.

وفي "دروب التبانة " [1] وعبر أسلوب السرد القصصي يستمر الشاعر في استرجاع ذكريات طفولته مستثمراً بعض عبارات اللهجة العامية وبالذات التي استعملت في الغناء العراقي- عن

(١) درب التبانة : وهي مجموعة كبيرة من النجوم سيمت بسبب شكلها الذي يشبه خطاً من الحليب مشكلاً من الضوء عندما يتم رؤيتها من منطقة مظلمة.

طريق التناص – فاستجلى صور طفولته وشبابه ورصد تفصيلاتها المثيرة بنسج فني عالٍ يتابعها المتلقي بشغف ويساق وراءها إلى نهاية الأحداث حيث المفاجأة التي أطلقتها (المفارقة) بين مشهدين في عالمين مختلفين عاشهما الشاعر :

بدروب طفولتهم (عبد الرزاق الربيعي، مج٣، ص١٣-١٩)
كانوا يمشون
إلى مدرسة العشق الأول
الوطن الأجمل
يمسك كلٌ منهم
-خوف التيه-
أصابع صاحبه
وتلابيب المستقبل
ولأن الدرب طويل
وبلا أشجار وظلال نخيلْ
كانوا
يزجون الوقت
يغنّون
معاً
"همه ثلاثة للمدارس يروحون"[١]
.....
"همه ثلاثة للمدارس يروحون
بيهم حبيب الروح
بيهم حبيب الروح"
كثيراً ما يتفقون
وفي أمر يختلفون

(١) في النص إحالة وتناص مع أغنية المطربة العراقية مائدة نزهت "هم ثلاثة للمدارس يروحون" التي غنها عام ١٩٧٠م ، وهي من كلمات ذياب كزار (أبو سرحان) الحان كوكب حمزة.

.....

جمعتهم الصداقة في الدرب نفسه (درب التبانة)، لعب الشاعر دور السارد في تقديم الحدث فقدم مشهد الطفولة الذي لا يخلو من قسوة :

يسيرون
على طين الدرب
كما سواه الرب
بآخر أيام الخلق
وكي لا يوجع أيديهم
بعصاه
كانوا ينتعلون
حروف مداسات
تخفي أسرار
جوارب مثقوبة
بعد سنين
نزلت أمطار الليل
هوت أعمدة سقوف
صفوف الطين
المائع

وبعد سنين (نزلت أمطار الليل) في جو كنائي يشير إلى عواصف الحروب التي أكلت الإنسان والحجر (فهوت أعمدة سقوف الطين، جرجرها الطوفان ، مع السبورات، ونشرات الحائط ، للشارع).

فتفرقت النجمات
بدرب التبانة
....
"همه ثلاثة للمذابح يروحون"
فالأول غاب مقتولاً ، والثاني
"يادادة مثل الماي

بروحي نبع"
الثاني أخذته الحرب
إلى عرش الرب
"همه ثلاثة للمعارك يروحون"
وبلا كفن
والثالث هاجر نحو المجهول
"همه ثلاثة للمنافي يروحون"

ما بين طفولة سعيدة حالمة بالرغم من الحاجة وقسوة الحياة يسترجع كل ما هو جميل (الغناء، الطابور، الصف، السبورة، الابتسامة، الشمس الدافئة.....)

ثم ينقلنا بشكل مفاجئ إلى مشهد قاس مؤلم مليء بالدم والحزن والهجر عبر مفارقة المشهد والحدث، وبموسيقى هادئة مشحونة بدفق شعوري طفولي، وتيار دلالي حزين، يفتح الشاعر جرح العراق ونوافذ الدرب المسور بالبنادق.وعمق هذا المشهد حين تلا ثلاثتهم ثلاثي آخر وهو الثلاثي الغنائي شاعر الأغنية (أبو سرحان):

بعد سنين أخرى
مرت حقبٌ
وفجائع
غاب (أبو سرحان)
هوى نجم لامع
بغيابة ذئب جائع
ثم اعتزلت مطربة الأغنية (مائدة نزهت)
واعتزلت مطربة الحيّ الحب
وأسدلت البنت ستارة
شباك الجار السابع
ثم شاخ ال "كوكب"
مثل الماء
وظل الصوت
يدور

"كوكب حمزة" ملحن الأغنية
"همه ثلاثة للمقابر
يروحون"
"همه ثلاثة للمدارس .....

فأسدل الستارة على المشهد الأخير من الحياة الحافلة بالمتناقضات المؤلمة ، إذ ذهب الإنسان وبقيت الذكرى .

ذهب أبو سرحان، ومائدة نزهت، وكوكب حمزة وبقيت الكلمة ، واللحن، والأغنية والصوت الدافئ...

وفي مشهد أخر ، وفي سياق مشابه لسياق النص السابق يقول:

أولاد أخي (عبد الرزاق الربيعي،مج٢، ص٩٢)
يتفسخون تحت القصف
الذي قصف الطفولة
من جذورها
والماء الزلال
وعمتهم النخلة
قصف الأيام على الحائط
وسفينة السندباد
في الأفلام المتحركة
قصف الوردة التي أرضعتهم
من لبنِ شمسِها
قصفَ (شعر البنات)
فتطايرت رؤوس الأفكار
في الهواء المظلم
الثقيل
أولاد أبناء العم سام
يصفقون للمشهد

مشهدٌ تحتدمُ فيهِ قوى الصراع والتوتر والألم "فأولاد أخي يتفسخون" مقدمة جارحة منحها الشاعر بُعداً دلالياً أعمق في توظيفه البنية التكرارية لمفردة (قصفَ) إذ تكررت خمس مرات في النص؛ ففي الأولى كانت مصدراً توالدت منهُ الأفعال أربع مرات؛ لتقصف كلَّ الجمال (الطفولة، الماء، الزلال، النخلة، الأيام على الحائط، سفينة سندباد، الوردة ، شعر البنات) ؛ فتطايرت الرؤوس؛ ليفاجئ القارئ بخاتمة تُغيظ الإنسانية جمعاء!.

أولاد أبناء العم سام

يصفقون للمشهد

نعم .. إنهم يصفقون للمشهد ، لإبادة الإنسان العربي، مفارقة بارزة بين مشهدين متضادين: مشهد صوَّر (قتل الجمال) وآخر صوّرَ (تصفيقاً لقتل الجمال) !!.

المبحث الثاني
المفارقة اللفظية

في المفارقة اللفظية يكون المعنى واضحاً نسبياً ، ولا يتسم بالغموض والتعقيد، ويكون ذا قوة دلالية مؤثرة وتعتمد في كشف حقيقتها على الشاعر أولاً، فيكون فيها المعنيان الظاهر والباطن في تضاد مباشر لا يستدعي التفكير والبحث من القارئ عن طرفي المفارقة، وتأتي بأنواع كثيرة كمفارقة التضاد، والاستدراك، والاستفهام، والجملة الشرطية وغيرها. فهي " شكلٌ من أشكال القول يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر يخالف غالباً المعنى السطحي الظاهر "(محمد العبد، ١٩٩٤،ص٧١)

وتعدُ المفارقة اللفظية أبرز أشكال المفارقة من حيث توظيفها في الشعر العربي المعاصر إذ يعرفها ميويك: "انقلاب في الدلالة"(Muek,D.C,p.٣٢)

وللربيعي نصوص استثمرت هذا النوع من المفارقة ، لكنها شغلت مساحة أقل من تلك المساحة التي شغلتها المفارقة السياقية.فعن الوجع الطافح يقول:

في مضمار الوجع الطافح (عبد الرزاق الربيعي،٢٠٢١م،مج١، ص١٠)

من فيض أساي
لا غالبَ إلاّي
ولا مغلوب
إذا جدّ الجد
وحانت لحظات التتويج
سواي

ففي مستوى المآسي هو الفائز في المنافسة، وسرعان ما ينتبه إلى خيبتهِ من جهة أخرى ليجد نفسهُ هو المغلوب ، مغلوب في انكسارهِ ، غالب ومغلوب في هزيمته أمام قسوة واقع لا يرحم!! فهل يمكن أن يكون غالباَ ومغلوباً في آن واحد ؟! إنه يبحث عن جذب انتباه المتلقي إلى مدى حجم انكساره ، ومرارة واقعه الهش؛ فهو الغالب في منافسة الوجع الطافح ويتوج مغلوباً في المضمار نفسه ، إذ استعمل مفردة (التتويج) إمعاناً في السخرية المرّةَ من قسوة الواقع.

ويلتقط أبعاد المفارقة في كثير من مشاهد الحياة:

وعندما اسودَت (عبد الرزاق الربيعي،مج١، ص٨٨)

سماءُ الله

في العين الغريبة

أمَطرت

فغدوت أرفلُ بالبياض

فهو يرى في عينه الغريبة السماء سوداء لم تقدم إلا الأحزان ، فكانت لفظة (أمطرت) صورة كنائية عن غزارة الدموع ، واللون الأبيض ليس إلا شكلاً مفارقاً يرتبط بصورة الأكفان ، فالكون ملفع بالسواد وهو بالمقابل لا يرفل إلا بالأكفان كنايةً عن أحزانهِ ومآسيه التي لا تنتهي.

وعلى سبيل مفارقة الثنائية الضدية؛ فالشرخ بين المعنيين يبدأ بالفارق بين اللونين (أبيض-أسود) ثم يتعمق وتزداد مسافته كلما تقدمنا في متابعة السياق الذي يبلغ غاية التضاد (فالدنيا مظلمة ، وهو مكفن بالبياض) .

وهو لا يفتأ أن يستذكر وطنه الذي رماه من خلال غربته القاسية.

سيرْ مع الماء المترسب (عبد الرزاق الربيعي،مج١، ص٦٢)

في قعر وطن

أعطَيتهُ زهرة روحكَ

وأعطاك طلقة واحدة

وحضن نهر أحمر

المفارقة المؤلمة بين نبل ما أعطى (زهرة روحه) وقسوة ما أخذ (طلقة واحدة وحضن نهر أحمر) مشهد يختزل صور الموت والدم والتهجير على عكس ما تفضي إليه دلالة (الوطن) من أمن واستقرار ؛ فهو يهب الحياة للوطن ويستقبل الموت فكان العطاء غير متكافئ بين الطرفين، ولا يخفى الأسلوب الساخر الذي بدأه بفعل الأمر (سير مع الماء المترسب في قعر وطن) وفي النص الذي تلاه إذ اتضح سبب تلك السخرية ، ثم يستثمر تلك الصور نفسها في حديثه عن أصدقائه.

أصدقائي (عبد الرزاق الربيعي، مج١، ص٢٢)

حينما داهمني الطوفان

صاحوا اليوم (لا عاصم إلا ....)

وبإغماضةَ روح هربوا

فبعضهم غيبهم الموت، وبعضهم انشغل بالرحيل إلى المنافي والمهاجر، بعضهم أخرستهُ الحاجة والظروف، لكنه سرعان ما يتسامح في مفارقة أخرى وينسى تلك المواقف السلبية:

أصدقائي (عبد الرزاق الربيعي، مج١، ص٢٣)

رغم

ما قالوا ..

وما في صحف الخيبةِ

ما قدْ كتبوا

أصدقائي.. أصدقاء

وهوى لا ينضب

الملاحظ أن الثيمة المركزية التي تقوم عليها أكثر قصائده هي الانطفاء والانكسار ومفارقاته مفعمة بالوجع والآلم، وحين يتحدث عن الحبيبة والزوجة نجده متأملاً ساعة ومتألماً ساعة أخرى بحسب الموقف:

كأنَّ قلبي حقيبة (عبد الرزاق الربيعي، مج١، ص١٠٥)

مقفلة على وجهكِ

ووجهكِ

يفتح لي المسافات

فهو مغلق القلب على حُبِّ حبيبته في حين أن هذا الحب يفتح له أفاقَ الحياة ، ومابين هذا الإغلاق والانفتاح تكمن المفارقة من خلال التضاد المألوف ؛ إذ أعطى الانفتاح لحياته مساحة كبيرة من الأمل.

ثم ينطلق عبر القطارات في مشهد كنائي إذ يدل الانطلاق على السرعة والحيوية، بينما يدلُ الجر في (عربة خشبية تجر الأزهار الذابلة) على البطء والشيخوخة .

لك القطارات (عبد الرزاق الربيعي، مج٣، ص١٨٢)

المنطلقة للأمام

وفي عربة خشبية

تجرُ أزهاري الذابلة

نحو مقبرة الأيام

فلها ربيع الحياة بكلِّ دلالاته المزهرة ولهُ الخريف بكل ذبوله وشحوبهِ منتهياً بمفردة (المقبرة) التي أنهت كلَّ حديث .

الخاتمة

تناولت الدراسة (المفارقة في شعر الشاعر عبد الرزاق الربيعي) بشقيها اللفظي والسياقي عبر وسائط تشكلها المختلفة وخلصت إلى مجموعة من النتائج:

١. تشكلت (المفارقة) في شعر الشاعر عبد الرزاق بوساطة الصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية ، والأساليب البديعية كالتضاد والأسلوب القصصي كالسرد.

٢. صور الشاعر عبر تقنية «المفارقة» همومه وآلامه وأحزانه وغالباً ما يربط تلك الآلام بأحزان الوطن والمصائب التي مرت به ، تثيرُ شجونه الغربة والحنين؛ فقدمَ لنا مشاهد عديدة تقوم بنيتها على التضاد بين (الأنا والآخر)وأحياناً بين (الأنا والأنا) وبين زمنين (الماضي والحاضر) ليستخلص ما يفاجئ المتلقي ويثير عندهُ مشاعر الدهشة والألم.

٣. كانت المفارقة في شعره محملة برؤيته الفكرية والفنية، فكشفت علاقته مع الآخرين ومع نفسه ومع الواقع بكل ما يكتنفه من : قلق ، توتر، حزن، اضطراب، فحاول أن يتمرد عليه تارة ، لكنهُ في الأغلب كان منقاداً مستسلماً للقدر.

٤. غلبت المفارقة السياقية أو مفارقة المشهد والحدث في نصوصه الشعرية المفارقة اللفظية؛ إذ كانت الأخيرة محدودة ، في حين طغت السياقية على أغلب نصوصه التي اتخذت من المفارقة أسلوباً لتصوير رؤيتها وغرضها.

المصادر والمراجع

١-جان كوهين , الإعلام و اللغة العليا، ترجمة د. أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

٢-حرره تشارلز تي قاموس أكسفورد الإنجليزي المختصر ويليام ليتل وهـ. دبليو فاولر، وجيه كولوس، أونيون أكسفورد، مطبعة كليرندون، ١٩٥٦.

٣-رشا ،فاضل المزامير السومرية، مؤسسة دار شمس للنشر ٢٠٠٤ .

٤-سي ميويك، موسوعة النقد وخصائصه، ترجمة: المصطلحات، عبد الواحد لولو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، المجلد ١٤ ، ١٩٩٢/٦.

٥-عبد الرزاق الربيعي، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول المجلد الثاني، المجلد الثالث المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بالتعاون مع دار سطور للنشر والتوزيع - بغداد ٢٠٢١.

٦-كمال أبو ديب، في الشعر، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٧.

٧-محمد العبد، التناقض القرآني، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٤ .

٨-المعجم الوسيط، تأليف مجموعة من الباحثين، دار الشروق القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠١م.

٩-موكاروفسكي اللغة الفصحى واللغة الشعرية، ترجمة ألفت الروبي، مجلة فصول المجلده، العدد١٤، ١٩٨٤م .

١٠-الهام مكي المواشي، المفارقة في الشعر العربي في المهجر الشمالي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة بغداد / ٢٠٠١.

References:

1. Al-Mu'jam Al-Wasit, authored by a group of researchers, Dar Al-Shorouk, Cairo, 5th edition, 2001 AD.

2. Complete Poetic Works, Abdul Razzaq Al-Rubaie, Volume One, Volume Two, Volume Three: Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, in cooperation with Sutour Publishing and Distribution House - Baghdad 2021.

3. Encyclopedia of critical its characteristics, and t. translated by; C-Mewick, terminology, Abdul Wahid Lulu, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, 1st ed., Vol. 14, 6/1992.

4. In Poetry, Kamal Abu Deeb, Arab Research Foundation, 1987.

5. Lisan Al-Arab, Ibn Manzur, Vol. 11, Dar Ihya Al-Turath 1999 Al-Arabi.

6. Paradox in Northern Diaspora Arabic Poetry. Ilham Maki Al-Mawashi, Master's Thesis, College of Education, University of Baghdad / 2001.

7. Standard Language and Poetic Language, Mokarovsky: -Translation: Alfat Al-Ruby, Fusul Magazine 6, Volume 5, 1984, Issue

8. Sumerian Psalms, Rasha Fadel, Founder. Shams Publishing and Media, 2004.

9. The Higher Language, Jean Cohen, translated by: Dr. Ahmed Darwish, Supreme Council of Culture, Cairo, 1995.

10. The Qur'anic Paradox, Muhammad Al-Abd, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Cairo, 1st ed., 1994.

11. The shorter oxford english dictionary principales, edited by C.t_william little, h.w fowler, j coulous, onion, oxford, clareendon press, 1956.